



قرى الحوض المائي لوادي الشعرة بجبل وسلات: الخصائص المجالية والخصوصيات المعمارية

جهاد الصويد *

الملخص

يمثل جبل وسلات الواقع شمال مدينة القيروان أحد أهم المرتفعات الجبلية على مستوى امتداده الجغرافي وعلى مستوى كثافة أوديته ومجاريه المائية وعلى مستوى تنوع مواقعه الأثرية وأهمية قراه الجبلية وتعدّد معالمه التاريخية، وقد ساهمت المجاري المائية التي تنتظم على شاكلة أحواض مائية تخترق الجبل من كامل جهاته ساهمت في رسم مختلف أقسام الجبل وفي توزّع القرى والبلدات داخله.

ويبرز وادي الشعرة كأحد أهم المجاري المائية بالقسم الشمالي الغربي لجبل وسلات حيث يُقدّم حوضاً مائياً هاماً على مستوى المساحة وعلى مستوى عدد القرى الجبلية به، وهو حوض مائي سمح بتشكّل مجالات داخلية تشترك فيما بينها على مستوى تهيئة المجال وانتظام توزّعها وتشابه خصائصها المعمارية.

الكلمات المفاتيح: جبل وسلات، القيروان، الأحواض المائية، القرى الجبلية، وادي الشعرة.

Résumé

Les villages du bassin versant de l'Oued Chaara à Jebel Ousselat: Caractéristiques spatiales et spécificités architecturales. Situé au Nord de la ville de Kairouan, Le Jebel Ousselat est l'un des plus importants massifs montagneux de la région. Il se caractérise par la densité de ses réseaux hydrographiques, la diversité et la richesse de son patrimoine archéologique et historique et l'importance de son occupation traduite par le nombre important de ses villages.

A Jebel Ousselat, le réseau hydrographique est un remarquable révélateur d'une certaine dimension de l'organisation de l'espace occupé. L'Oued Chaara est le plus important cours d'eau de la partie nord-ouest de la montagne. Son bassin versant couvre une superficie assez étendue et compte un nombre important de bourgades et de villages. Ce trait naturel a permis la configuration d'espaces internes qui se partagent les mêmes caractéristiques spatiales et spécificités architecturales.

Mots-clés : Jebel Ousselat, Kairouan, bassins versants, villages de montagne, Oued Chaara.



Abstract

Located north of the town of Kairouan, Jebel Ousselat is one of the most important mountain ranges in the region. It is characterized by the density of its hydrographic networks, the diversity and richness of its archaeological and historical heritage and the importance of its occupation reflected by the large number of its villages.

In Jebel Ousselat, the hydrographic network is a remarkable indicator of a certain dimension of the organization of the occupied space. The Chaara wadi (currently dry) is the most important watercourse in the northwest part of the mountain. Its watershed, which has a large surface area, has several villages. This natural feature allowed the configuration of internal spaces which share the same spatial characteristics and architectural specificities.

Keywords: Jebel Ousselat, Kairouan, watersheds, mountain villages, Oued Chaara.

المرجع لذكر المقال:

جهاد الصويد، « قرى الحوض المائي لوادي الشعرة بجبل وولات: الخصائص المجالية والخصوصيات المعمارية »، السبيل : مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية [نسخة الكترونية]، عدد 15، سنة 2023.

الرابط : <http://www.al-sabil.tn/?p=4473> URL :



يبرز جبل وسلات كمرتفع جبلي متوسط الارتفاع وشاسع الامتداد ينتمي إلى سلسلة داخلية شرقي الظهيرية التونسية تفصل بين سهل الوسلاتية وسهول القيروان¹. ويقدم الجبل على مستوى التضاريس كثافة ملفتة للمجاري المائية الموروثة عن الأزمنة الجيولوجية منذ آلاف السنين وهي مجاري ساهمت في نحت الجبل وفي رسم أقسامه وأحواضه المائية. ويمثل وادي الشعرة أحد أهم الأودية بالقسم الشمالي الغربي لجبل وسلات² سواء على مستوى حجم روافده التي تخترق الجبل من جزئه الشمالي الغربي أو على مستوى المساحة التي يغطيها وهو يقدم حوضا مائيا متفردا تمتد به مواقع ومعالم تنتظم وفق تقسيم مجالي خاص وتمتد بها معالم أثرية ذات خصوصيات محلية، فماهي تجليات تفرد هذا المجال؟

1. الانتظام المجالي لقرى الحوض المائي بوادي الشعرة: "الوادي" و"البلاد"

يكون وادي الشعرة على المستوى الجغرافي حوضا مائيا له حدوده الواضحة ويقدم مجالا طوبوغرافيا تتوزع داخله مجالات ومناطق وقرى ومعالم مختلفة. ويتغذى واد الشعرة من ثلاث روافد أساسية تنبع من عمق الجبل الذي ينتمي إلى سلسلة جبلية داخلية ويبدو كتلة صخرية من الطبقات الكلسية السمكية³ وهي روافد تتميز بعمق مجاريها وبتشعب وتنوع أشكالها الطوبوغرافية التي تتالت فيها الذروات والأعراف الجبلية مثلت مواضع لتشييد بلدات وقرى ووقرت مساحات للغراسات والزراعة (الخريطة 1).

وتتوزع هذه الأشكال الطوبوغرافية حول الروافد الثلاث لواد الشعرة مكونة ثلاث مناطق جغرافية تمثل في نفس الوقت ثلاث مناطق أثرية تُعرف المنطقة الواحدة منها لدى السكان "بالبلاد" وهو مصطلح شديد التواتر في داخل الجبل وخارجه⁴.

وتتالي الروافد الثلاثة لواد الشعرة والمناطق الجغرافية التي تنتظم حولها من الشمال إلى الجنوب كالتالي أولها "وادي الخلوات" الذي يضم "بلاد القيطون" ثم نجد جنوبه "وادي ملقى الوديان" الذي يتطابق مع بلاد حمامة يليهما "وادي بالهاني" والذي يشمل بلاد البطمة وتقدم كل بلاد قرى ومعالم تختلف طبيعتها حسب موقعها من الجبل (الخريطة 2).

¹ F. Frémont, 1968, p. 111

² يمثل واد الشعرة أحد أهم روافد وادي مرق الليل.

³ J. Despois, 1959, p. 409 ; M. M. Turki, 1988, p. 31 ; S. Bergaoui et A. M.

Gammar, 1992, p.200 الوسلاتي عامر، 1994، ص 51

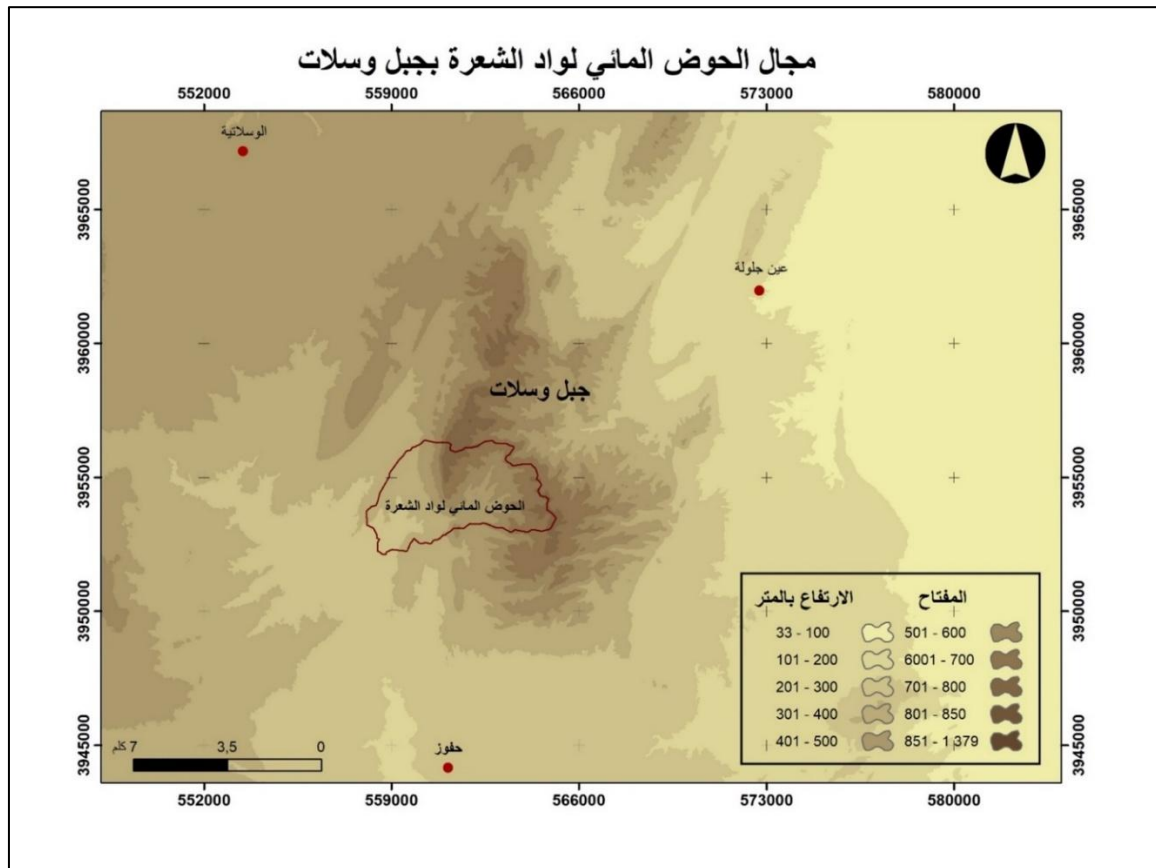
⁴ ذكر Despois تسميات لم تعد موجودة حاليا هي "بلاد اللوز" و"بلاد العرّاسة" و"بلاد النحالة" بالإضافة إلى "بلاد القيطون وبلاد حمامة"، ولم نجد في الخرائط الطوبوغرافية تسميات البلاد إلا في المنحدر الشرقي لجبل وسلات "بلاد النحالة"، وقد ذكر أيضا رياض المرباط تسمية "بلاد الجاهلية"، أنظر:

المرباط رياض، 2009، ص 147 و150؛ J. Despois, 1959, p. 415؛ الخريطة الطوبوغرافية 1/50000 حفوز رقم 62.

ويمثل خط تقسيم المياه la ligne de partage des eaux الحد الفاصل بين كل بلاد وأخرى والعبارة المعتمدة لدى السكان وفي وثائق الملكية بكامل الجهة هي "تبازيع الماء"⁵ حيث تُعتبر ذروات كاف القيطون حدًا فاصلا بين بلاد القيطون وبلاد حمامة وتمثل ذروات "واد القراج" حدا فاصلا بين بلاد حمامة والبطمة.

1.1. بلاد القيطون

بلاد القيطون هي المنطقة المعروفة حاليا بالقيطون⁶ وهي تشمل مجموعة من التلال التي تتقدم جبل وسلات من الجزء الشمالي الغربي وهي تلال تمتد مباشرة أسفل "كاف القيطون" الذي يحتوي على أحد أعلى النقاط بجبل وسلات (812 م). وتمتد هذه البلدات أسفل "كاف القيطون" فوق ذروات يبلغ ارتفاعها 450 م تقريبا وهي تتوسط تهينة زراعية تقوم على استغلال المنحدرات المحيطة بها وتهينتها بمساطب Terrasses (الصورة 1 و2).

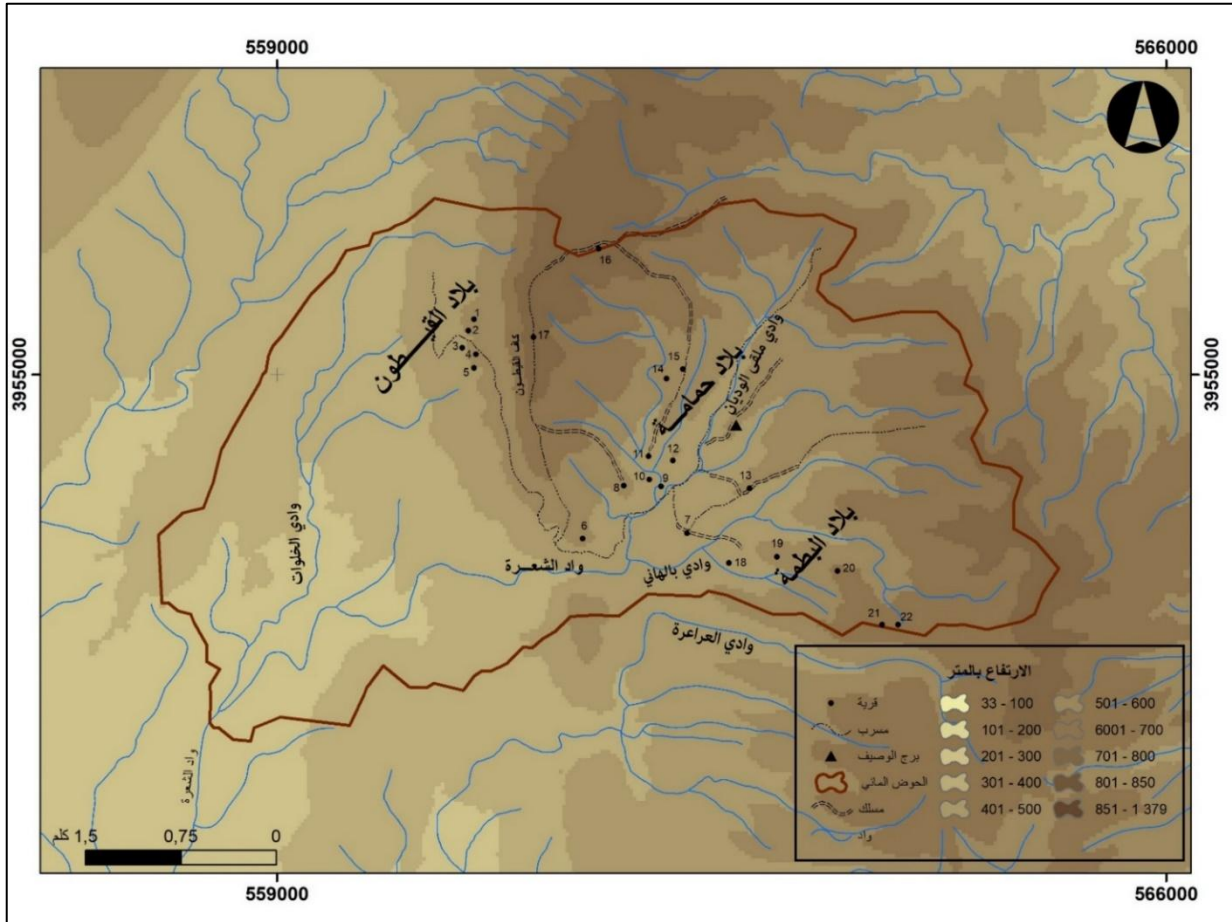


الخريطة 1. مجال الحوض المائي لواد الشعرة بجبل وسلات.

المصدر: رسم الكاتب.

⁵ أنظر على سبيل المثال المصطلحات المستعملة خلال القرن 17 م في وصف حدود قرية بني عتاب بجبل السرج (سيدي حمادة): الصويدي جهاد، 2015، ص 82؛ الصويدي، 2021، ص 91.

⁶ كانت المنطقة تُعرف أيضا ببلاد القيطون حسب ما دونه Despois في النصف الأول من القرن العشرين من روايات سكان أسفل الجبل، أنظر: J. Despois, 1959, p. 415.



الخريطة 2. توزّع القرى بالحوض المائي لوادي الشعرة⁷
المصدر: رسم الكاتب.

وتنتظم هذه التلال شرقي "وادي الخلوات" أين تتوزّع بها خمس بلدات صغيرة هي على التوالي من الشمال إلى الجنوب "سيدي زفام" (رقم 1 في الصورة) و"بو مياسة" (رقم 2) وهما بلدتان شُيّدت فوق أُسُسِيهما مباني حديثة ولم يعد يبرز بهما سوى بعض الجدران في طرفيهما. أما باقي البلدات والتي حافظت على امتدادها فهي "دار الزيت" (رقم 3) ثم "سيدي عمر البكوش" (رقم 4) التي وقع استغلال جزء منها كمقبرة مستحدثة ثم "دار الحيط" (رقم 5).

ولا تزال تبرز بهذه البلدات معالم سكنية يغلب على عُرفها الامتداد الطولي مع محدودية العرض الذي لا يتجاوز 2 م في أقصى الحالات، وقد أمكن الوقوف على خمسة أحواش بدار الحيط وثلاثة بسيدي البكوش وخمسة أيضا بدار الزيت. وتقدّم بلاد القيطون بحكم موقعها الطرفي من الجبل وقربها من المنخفضات السهلية واحد من الآبار القليلة التي تنتشر حول

⁷ 1: سيدي زفام، 2: بو مياسة، 3: دار الزيت، 4: سيدي عمر البكوش، 5: دار الحيط، 6: دار بن قملة، 7: بلد فيض الخصومة، 8: الطرابلسين، 9: بلد الوطا، 10: خنيفسة، 11: بلد الجاهلية، 12: كتف البلد، الهنشير، 14: القليعة، 15: بلد ذراع البلّوطة، 16: بلد هنشير الضرو، 17: بلد المجيرة، 18: البطمة، 19: السند، 20: دار ملاح، 21: الشندوب، 22: سيدي بوحديد.



الجبل وهو المعروف ببئر القيطون كما تحتوي المنطقة على شواهد لتهيئة مائية عبر استغلال الشقوق الصخرية في الطبقة الكلسية ووضع ملاط عازل على غلافها الخارجي وتشبيد سقف على شاكلة قبو في بعضها.

وتُقدّم منطقة القيطون في مستوى الطرف الشرقي لبلدة دار الزيت مسجداً انهار بالكامل وحافظ على أسس جدران الخارجية وعلى جدار قبلته وحنيتته الناتئة في محوره بالإضافة إلى الأعمدة الحجرية التي كانت تقسمه إلى ثلاث بلاطات متعامدة مع جدار القبلة وثلاثة أساكيب (الصورة 3)، كما تبرز بالقيطون أيضاً بقايا معصرة زيتون لا تزال بعض عناصرها المعمارية قائمة وهي تمتدّ في الطرف الشمالي لدار الزيت.

ولا يزال المسلك الأصلي المُفضي إلى هذه البلدات قائماً إلى حد الآن يكون عرضه في حدود 4 م على أقصى تقدير تحفّ بطرفيه جدران معدل ارتفاعها في حدود المتر وتحفّ بها أيضاً صفوف من الصبّار (الصورة 4) هي على الأرجح من بقايا التهيئة التي قام بها الوسالنية والتي ميّزت مشاهد قرى جبل وسلات قبل قرار الباي إخلاء الجبل، فقد تحدّث مصادر القرن 18 م مثلاً عن قرى وسلات وبلداتها التي كانت تتوسط في الغالب أشجار الصبّار أو "شجر الهندي"⁸.

2.1. بلاد حمامة

مثّلت بلاد حمامة موضوع دراسة سابقة⁹ اهتمنا خلالها بضبط حدودها المجالية وتتبع انتظام قراها ومعالمها حول وادي ملقى الوديان وهو ثاني روافد وادي الشعرة. وتمثّل بلاد حمامة الحوض المائي الفرعي الأوسط من كامل الحوض المائي لوادي الشعرة، وهو يقدّم أكبر المناطق على مستوى الامتداد الجغرافي وأكثر عدد من القرى (12 قرية¹⁰) ومن المعالم والمنشآت باختلاف أصنافها (الخريطة 3).

وتبرز بلاد حمامة على المستوى الجغرافي كمجموعة تتوسط كل من بلاد القيطون وبلاد البطمة، وهي تشترك معهما في المدخل المُفضي إليها من الجهة الشمالية الغربية لجبل وسلات، كما أنها تمثّل نقطة الوصل لباقي المنطقتين بينها وبين باقي الجزء الشرقي من جبل وسلات وهو ما يجعل منها منطقة مركزية في كامل الجزء الغربي من جبل وسلات لخصوصية انفتاحها بين الجبل والسهل في نفس الوقت.

⁸ الصغير بن يوسف، 1998، ج 1، ص 81 و 105؛ الصويد، 2016، ص 104.

⁹ الصويد، 2021.

¹⁰ تمّ خلال زيارات حديثة للمنطقة التفتّن إلى وجود قرية أخرى لم يقع احتسابها في أعمال سابقة فيصبح العدد المُحيّن للقرى هو اثنا عشرة قرية، الصويد، 2021، ص 93.

3.1. بلاد البُطمة

تُمثّل بلاد البُطمة آخر المناطق المُكوّنة للحوض المائي لواد الشعرة من الجهة الجنوبية، تمتد حدودها الشمالية مع بلاد حمّامة على طول المرتفعات الفاصلة بينهما أما حدودها الجنوبية فتكون في مستوى منحدرات واد العرارة الذي يبرز كأحد أكثر المجاري المائية عمقا وانحدارا (صورة 5)، ويكون خط تقسيم المياه حدّه الشرقي الذي يتركّز في أعلى قممها ضريح لسيدي بوحديد. تتميّز بلاد البطمة بشدّة تضرّس منحدراتها وبعمق أوديتها الفرعية التي تخترقها مثل "وادي القرابج" وهو ما أثر على عدد التجمعات السكنية وامتدادها مقارنة ببلاد حمّامة حيث يقتصر الأمر ببلاد البُطمة على أربعة قرى هي الشندوب ودار ملاح والسند والبطمة.

تمتدّ بلدة الشندوب في أقصى الطرف الجنوبي الغربي لبلاد البطمة وتمثّل حدودها الجنوبية والشرقية آخر نقاط لكامل مجال حوض وادي الشعرة ويمتدّ جنوبها مباشرة أحد أكثر الأودية عمقا وهو وادي العرارة والذي يقدم بدوره حوضا مائيا آخر على غرار حوض وادي الشعرة. وتمتدّ بلدة الشندوب (صورة 6) فوق ذروة جبلية منبسطة لها امداد بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ارتفاعها 720 م تحتوي على تسعة أحواش تتوزع وفق مجموعتين، وقد تمّت بمنحدراتها الشرقية والغربية تهيئة منشآت مائية في مستوى الانكسارات الصخرية أين أمكن رصد منشأتين مائيتين.



صورة 1. قرى بلاد القيطون من الجهة الغربية.
المصدر: صورة الكاتب.



صورة 2. قرى بلاد القيطون وحدودها الغربية.
المصدر: صورة الكاتب.



الصورة عدد 3. مسجد القيطون.
المصدر: صورة الكاتب.



الصورة 4. مسلك يتوسط بلاد القيطون.

المصدر: صورة الكاتب.

ويمتدّ جنوب قرية الشندوب¹¹ مسلك مهيئ (صورة 7) يتجه جنوبا ليمر بضريح "سيدي بوحديد"¹² (صورة 8) الذي يمثل آخر نقطة لبلاد البطنة من الجنوب يتجاوز ارتفاعها 700 م مكوّنة مع باقي الذروات الملاصقة لها خطّا لتقسيم المياه. ويقدم هذا الضريح نموذجا للعمارة المحليّة الجبلية حيث يمتد بطرف واجهته الشرقية مدخل يفضي إلى رواق جنوبي سقفه قبو طولي انهار جزء هام منه يتقدم من الجهة الجنوبية فضاء مربع الشكل بجدرانه الشمالية والشرقية والغربية أقوس جدارية (قوسين من كل واجهة) في حين يحمل قوسي الواجهة الجنوبية عمود حجري. سقف الغرفة المربعة قبة مخروطية تستند على رقبة تعلو الفضاء المربع بواسطة صدقات ركنية متدرجة، بوسط الغرفة قبر لسيدي بوحديد تبدو آثار نبش حديثة في أغلب أركانها ويبرز به إلى تابوت خشبي وضعية صيانتها سيئة.

البلدة الثانية هي دار ملاح وهي تحتل القسم الأوسط من بلاد البطنة في مستوى منحدر يبلغ ارتفاعه 550 م تمتدّ بها خمسة أحواش متباعدة فيما بينها ووضعيتها صيانتها سيئة للغاية فقد كان للانحدار دور كبير في تداعي جدرانها وتدرج حجارته نحو الأسفل (صورة 9).

¹¹ قمنا بإنجاز سبر أثري في بلدة الشندوب سننشر نتائجه قريبا في مقال مستقل.

¹² يمكن أن نلاحظ التقارب الصوتي بين اسم الضريح "بوحديد" وبين مصطلح الحد، فهل التسمية في علاقة بضبط حدود مجالية للمناطق بالجبل خاصة وأنه يمثل آخر نقطة من كامل هذا الحوض المائي لوادي الشعرة من الجهة الشرقية؟ مع الإشارة إلى أن الرواية الشفوية المتداولة بأسفل الجبل تُفيد بأن شهرة صاحب الضريح كانت نسبة لقطعة من حولي أهدتها له إمرة من الجبل بعد أن بشر بنزول الغيث النافع على إثر جفاف طال بجبل وولات وتحقق تنبئه.



ويوجد غربيتها في مستو ذروة ثانية أسفلها بلدة السند وهي تختلّ موقعا مُشرفا ارتفاعها في حدود 530 م تمتد بها خمسة أحواش (صورة 10).

البلدة الرابعة هي بلدة البطمة وهي تحتل مركز البلاد وهي التي أعطت اسمها لكامل المنطقة (الصورة 11)، حيث يبرز بها ما لا يقل عن سبعة أحواش تمتدّ فوق ذروة ارتفاعها في حدود 520 م بطرفها الشرقي توجد مقبرة وحويطة لسيدي "بو مناد" وبالطرف الغربي تمتدّ مجموعة هامة من معاصر الزيت حيث مكّنا العمل الميداني من الوقوف على ستّ معاصر للزيت وهو أعلى عدد للمعاصر في بلدة واحدة بكامل الحوض المائي لواد الشعرة.

ويوجد في أقصى الطرف الغربي وبالقرب من المسلك المفضي للبلدة ولكامل البلاد مسجد له مدخل شرقي وله امتداد طولي بين الشرق والغرب أقص طوله نجده في مستوى جدار القبلة 10,40 م ثم جداره الشرقي بحوالي 10,20 م أما الجدار الشمالي فهو لا يتجاوز 8,10 م. بمحور جدار القبلة حنية في الجدار غير نائنة من الخارج ولا تزال أرضيته تحتفظ بجزء من طبقة من الحصى والجير كانت تغطّيها.

2. التهيئة المجالية : تقسيم مجالي محلي عريق

لقد كان للمعطيات الجغرافية دور أساسي في تشكّل طوبوغرافية الحوض المائي لوادي الشعرة وفي بروز حدوده المجالية بشكل واضح، وقد كان لنفس المعطيات مساهمة أساسية في نحت المجال وفي رسم طوبوغرافية خاصة قام السكّان بتهيئتها عبر التفاعل والتأقلم مع خصوصيتها فكان تدخلهم بتهيئة المسالك والمسارب وبتقسيم الأراضي وتهيئتها.

1.2. المسارب والمسالك

يمكن للمتمعّن في الخرائط الطوبوغرافية التي يمتدّ عليها جبل وسلات أن يلاحظ وجود شبكة كثيفة من الطرقات التي تصل بين مختلف أطراف الجبل وبين قراه وبلداته، ويزداد فهم أهمية هذه الشبكة وخصوصيتها بالمعينة الميدانية، فقد مكّنتنا أعمال المسح التي قمنا بها في منطقة الحوض المائي لوادي الشعرة من الوقوف على خصوصية هذه الشبكة وعلى طبيعتها وأصنافها وقد فصلّنا في أعمال سابقة عند دراسة بلاد حماسة هذه الشبكة وفرّقنا خلالها بين صنفين من الطرقات يشمل الصنف الأول "المسارب" ويشمل الصنف الثاني "المسالك"¹³، وقد لاحظنا أن هذا التقسيم يتواصل ليشمل أيضا بلاد الفيطون وبلاد البطمة فالطرقات مترابطة ومتشابكة ومُشتركة بين مختلف مناطق الحوض المائي لوادي الشعرة.

ويبرز مصطلح "المسرب" كأحد أقدم المصطلحات المُعتمدة في المصادر خلال الفترة الحديثة لتوصيف صنف من الطرقات التي يتنقل عبرها سكان الجبل عامة والتي تصل بين

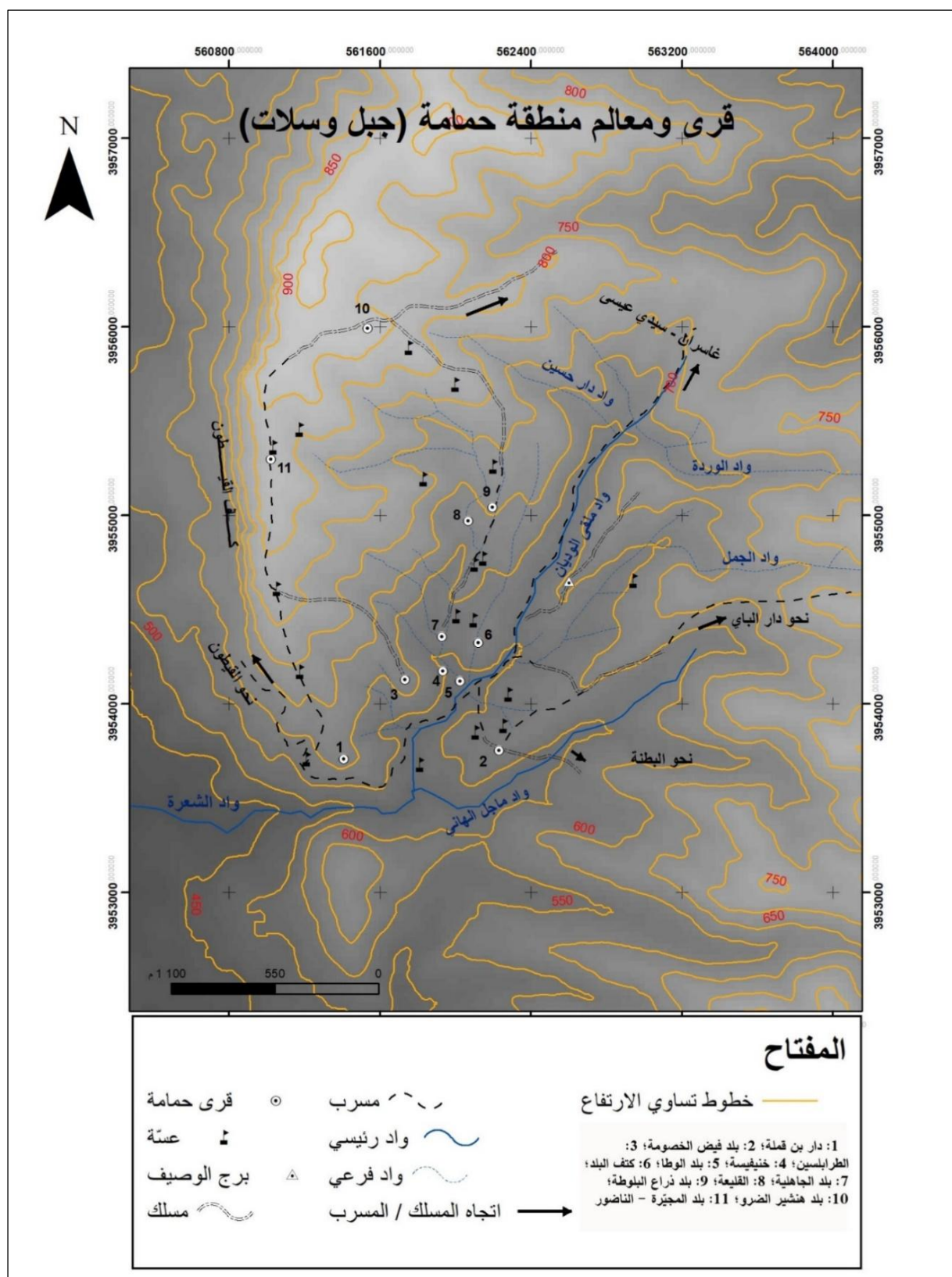
¹³ الصوید، 2021، ص 100.



قرية وأخرى وبين منطقة وأخرى، فقد ذكر الصغير بن يوسف وصفا للجبل ذكر فيه "ليس بين القرية والقرية وصلة ... ترى مسربا كمسرب النمل"¹⁴.

وتمتدّ المسارب بالحوض المائي لوادي الشعرة انطلاقا من مدخل طبيعي لمجرى وادي الشعرة يُعرف "بخنقة وادي الشعرة" أين يوجد مسرب يُسائر حافة مجرى الوادي يتفرع عنه في مرحلة أولى من الجهة الشمالية مسرب يُؤدّي إلى بلاد الفيطون ثم في مرحلة ثانية يتفرّع عنه في مستوى نقطة التقاء رافدي وادي الشعرة الجنوبيين نحو وجهتين، الوجهة الأولى نحو بلاد البطمة عبر حافات "وادي الهاني" والوجهة الثانية نحو بلاد حمامة عبر حافات "وادي ملقى الوديان" (أنظر الخريطة 2).

¹⁴ بن يوسف، ن. م.، ج 1، ص 105.



الخريطة 3. قرى ومعالم بلاد حمامة.

المصدر: الصوید، 2021، ص 93.



صورة 5. مجال بلاد البطمة.
المصدر: صورة الكاتب.



صورة 8. سيدي بوحديد



**صورة 7. مسلك
الشندوب - سيدي
بوحديد**



صورة 6. أحواش بالطرف الغربي للشندوب



صورة 10. بلدة السند



صورة 9. دار ملاح



صورة 11. بلدة البطمة.

المصدر: صور الكاتب.

وتمثل هذه المسارب في الأصل مناطق تتنقل طبيعياً غير أن بعض أجزائها تحتوي على تدخلات بشرية بسيطة عن طريق ملء بعض الانكسارات بالحجارة أو عن طريق تشييد مدرجات في نقاط الانحدار. ولا نستبعد أن تكون هذه المسارب هي نفسها التي كانت معتمدة منذ فترات ما قبل التاريخ وتواصل استعمالها إلى يومنا هذا حيث تتوزع أغلب الرسوم الصخرية الموجودة بهذا الجزء من وصالات في الأودية والمنحدرات أسفل هذه المسارب¹⁵.

أما ما اعتبرناه مسالك فإنها تشمل الطرقات التي تمتد بالأساس فوق الذروات الجبلية وهي تغطي كل مناطق الحوض المائي لوادي الشعرة وتصل بينه، وهي تتميز أساساً بوجود جدران تُحدد مسارها يصل معدل ارتفاع الجدار إلى حوالي متر واحد وأحياناً يصل ارتفاعها إلى القامة في بعض النقاط. وتمتد هذه المسالك على كامل خط ذروات كاف القيطون وتتواصل منه نحو باقي مناطق جبل وصالات وهي تُساير نفس خط تقسيم المياه وبالتالي فهي تمثل حدوداً بين بلاد القيطون شمالاً وبلاد حمامة جنوباً (الصورة 12). ويمتد تقريباً بشكل موازي لهذا المسلك نحو الجنوب مسلك آخر يُساير أيضاً خط الذروات ليفصل بين بلاد حمامة وبلاد البطنة جنوباً (صورة 13)، وبين هذين المسلكين تتفرع باقي المسالك التي تصل بين الذروات الجبلية والبلدات والقرى لمختلف المناطق.

وترتبط هذه المسالك بطبيعة النظام الاقتصادي بجبل وصالات والقائم على النشاط الزراعي بحكم أن سكان الجبل كانوا مستقرين ومشجّرين¹⁶ كما كانوا يمارسون نشاط تربية

¹⁵ حول أهم الرسوم الجدارية بهذا الجزء من وصالات ومختلف الشواهد المؤرخة بفترات ما قبل التاريخ أنظر:

S. M'timet et J. Zoughlami, 1991; J. Ben Nasr, 2001- 2002; Harbi – Riahi, A. Gragueb, A. A. Yahia – Acheche, 2009.

¹⁶ المكني، دون تاريخ، ص 22.



الماشية التي تُؤكّد المصادر وجودها وأهميتها في اقتصاد سكان الجبل¹⁷ وهنا يكمن الإشكال والحل في نفس الوقت. فالمجال المحيط بالقرى داخل الجبل وداخل هذا الحوض المائي مجال مهيبٌ بالكامل ومغروس في مُجمله ونشاط الرعي كان يتمّ خارج الجبل بشكل يومي وجماعي لأهل المنطقة أو القرية الواحدة وقد مثّلت هذه المسالك القادرة على حصر مسار المواشي ونقلها خارج الجبل من دون أي إضرار بالمناطق الزراعية وبالأشجار داخل الجبل حلا ناجعا للقطع مع أي أضرار قد تُحدثها المواشي للمحاصيل (صورة 14).

كما تمثّل هذه المسالك أشكال تهيئة لمسارات مضبوطة تضمن سلاسة التنقلات على الدواب¹⁸ بسلامة المحاصيل من الخيل والبغال التي كانت حاضرة بشكل ملحوظ في نقل البضائع لدى الوسالتية¹⁹ هي أيضا مسالك كانت ناجعة في التحركات بين أطراف الجبل وبين المسالك أسفل الجبل²⁰.

2.2. "العسات": معالم التأمين الداخلي والمراقبة الخارجية

يكاد ينفرد جبل وسلات عامة والحوض المائي لواد الشعرة تحديدا بصنف من المعالم التي لا نجدّها في المرتفعات الجبلية القريبة وهي المعالم المعروفة عند السكّان المُحيطين بالجبل بتسمية "العسات" (جمع عسة) وهي بمثابة "المراصد" المُخصّصة للمراقبة وتنقسم إلى ثلاثة أصناف: "عسات" المراقبة الخارجية و"عسات" المراقبة الداخلية والبرج²¹.

يتوزّع الصنف الأول من "العسات" فوق أكثر الذروات الجبلية ارتفاعا بحوض واد الشعرة، وهي معالم يأخذ الواحد منها شكلا مستطيلا يصل طولها إلى 9 م وعرضها إلى بين 6 و8 م، وتتوزع أهم هذه المراسد على امتداد كامل ذروات كاف القيطون في نقاط يصل ارتفاعها إلى لأكثر من 800 م وهو ما يسمح برؤية شاملة وبمراقبة واسعة لكامل المجال أسفل الجبل في بلاد القيطون وداخله ببلاد حمامة وبلاد البطمة بالإضافة إلى امكانية مراقبتها مداخل الجبل من الجهة الغربية.

¹⁷ بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105.

¹⁸ تحدّث Despois عن تنقله بالخيول عبر هذه المسالك، كما لا يزال سكان أسفل الجبل يتنقلون نحو الجبل باعتماد نفس هذه الدواب، أنظر:

J. Despois, 1959, p. 415.

¹⁹ يتحدّث الصغير بن يوسف عن الأحمرّة والبيغال والتي كانت تخصص للنقل وحمل البضائع، أنظر: بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105، ج 4، ص 188.

²⁰ لا نستبعد من خلال سياق إشارة لدى الصغير بن يوسف بأن يكون يونس بن إسماعيل حفيد علي باشا قد فرّ من جبل وسلات ومن مقرّ إقامته بدار الباي نحو الجزائر عبر هذه المسالك التي تمرّ بالحوض المائي لواد الشعرة، أنظر: بن يوسف، 1998، ج 4، ص 188 - 189.

²¹ لم نقف على هذا الصنف من المعالم في المرتفعات الواقعة في القسم الأوسط من الظهرية مثل برقو والسرّج وكسرى والتي لا تبعد عن جبل وسلات كثيرا، أنظر للمقارنة: الصويد، 2011؛ الصويد، 2013؛ الصويد، 2015.

وتتوزع على امتداد كاف القيطون ثلاث مراصد تتباعد فيما بينها مسافة 500 م وهي مُلاصقة للمسلك الجبلي الذي يمتد على كامل كاف القيطون ممّا يسمح لها بمراقبة التنقلات والتحركات عبر هذا المسلك²² وتمتدّ مجموعة من "العسات" في بلاد البطمة فوق أعلى نقاط الذروات وهي تمثّل حدودا للبلاد (الخريطة 4) كما توجد مجموعة أخرى تتوزع في المرتفعات المحيطة "بخنقة وادي الشعرة" (الصورة 15 و16).



صورة 12. مسلك بين بلاد القيطون وبلاد حمامة صورة 13. المسلك بين بلاد حمامة وبلاد القيطون



صورة 14. مسلك بين بلاد حمامة وبلاد البطمة لا يزال مستعملا من قبل الرعاة.
المصدر: صور الكاتب.

²² الصويد، 2021، ص 103.



ويشمل الصنف الثاني "العسات" التي تتوزع داخل المستغلات الزراعية أو في أطرافها وقرب المنشآت المائية، وهي تمتد في كل من بلاد القيطن وفي بلاد البطمة وتكون كثافتها أكبر في بلاد حمامة. وتأخذ "العسة" الواحدة شكلا مستطيلا لا يتجاوز 5 م وعرضها يكون محدود لا يتجاوز 1,8 م وتتميز بوجود فتحات مراقبة يسمح برؤية شاملة للمستغلات الزراعية حسب ما عايناه في بعض "العسات" التي لا تزال قائمة الجدران.

أما الصنف الثالث فيشمل "البرج" وهو معلم محصن يُعرف بتسمية "برج الوصيف" يمتد في القسم الأوسط من الكامل المجال المدروس ويحتل نقطة مرتفعة تصل إلى 550 م تتركز حوله شبكة المسالك والمسارب، يأخذ شكلا يميل إلى الاستطالة أقصى طوله حوالي 20 م وعرضه حوالي 19 م وتمتد داخله مجموعة من الغرف ذات الامتداد الطولي (الصورة عدد 17). ولا نستبعد أن يكون هذا البرج هو واحد من الأبراج التي كانت تضم ممثلي السلطة المركزية داخل كل خمس من أخماس الجبل الذي كان منقسما إلى خمسة أخماس²³ ومقرًا من مقرات "قايد الخمس" وعسكر زواوة الذين كانوا تحت إمرته حسبما تذكر وثائق الأرشيف خلال القرن 18 م²⁴.

وتمثل مجمل هذه "العسات" معالم ارتبطت أساسا بمراقبة وتأمين سلامة المصدر الأساسي لحياة الوسائلنية من زراعات وغراسات سواء من التجاوزات الداخلية لسكان المناطق والقرى فيما بينهم أو من تعديات الأعداء من الخارج.

3.2. التقسيم الزراعي: القدرة على التأقلم مع قلة الموارد

بيّنت الدراسات الجغرافية التي اهتمت بجبل وسلات خلال خمسينيات القرن الماضي ضخامة المجهود المبذول لتهيئة المساطب les terrasses في المنحدرات الجبلية وانبهرت بحجم وامتداد هذه المساطب التي تكاد تشمل كل منحدرات الجبل²⁵.

والمسطبة على مستوى التعريف هي تهيئة لجدران في المنحدرات والأودية بغاية توفير مساحات زراعية إضافية في مجال جبلي صخري بالأساس وبغاية حماية طبقة تربة قليلة السمك من الانجراف والاستفادة بأكبر نسبة ممكنة من مياه الأمطار. وتمتد هذه الجدران بحسب شكل المنحدر وجدته وبحسب الانكسارات التي تخترقه حيث يلتوي جدار المسطبة الواحدة المتعادم مع المنحدر ويقل امتداده كلما كانت المساحة التي يُوطرّها محدودة (قد تشمل مساحة غراسية شجرة فحسب) ويمتد الجدار بشكل مستقيم ومتعادم مع المنحدر وعلى مساحة طويلة كلما كان المنحدر لطيفا وقليل الانكسارات وهو ما يسمح بتوفير مسطبة ممتدة وشاسعة.

²³ بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105؛ المكني، ص 32.

²⁴ الأرشيف الوطني التونسي (مستقبلا أ. و. ت.)، الدفتر عدد 15؛ أ. و. ت.، الدفتر عدد 26؛ الصويدي، 2021،

ص 104.

²⁵ J. Despois, 1959, p. 412.



وتقدّم مثل هذا التهيئة مشهدا زراعيًا يجعل من المنحدرات الصخرية حادّة كانت أم لطيفة تبرز على شاكلة مدرّجات متتالية يقل عددها ويرتفع بحسب امتداد المنحدر، وقد اعتبرت بعض الدراسات أن المساطب بجبل وولات تتشابه على مستوى التقنية العامة مع "السدود" بجبال الجنوب التونسي وجبل نفوسة²⁶ وهي تتشابه أيضا مع تقنية "الدكاكن" في جبل برقو²⁷.

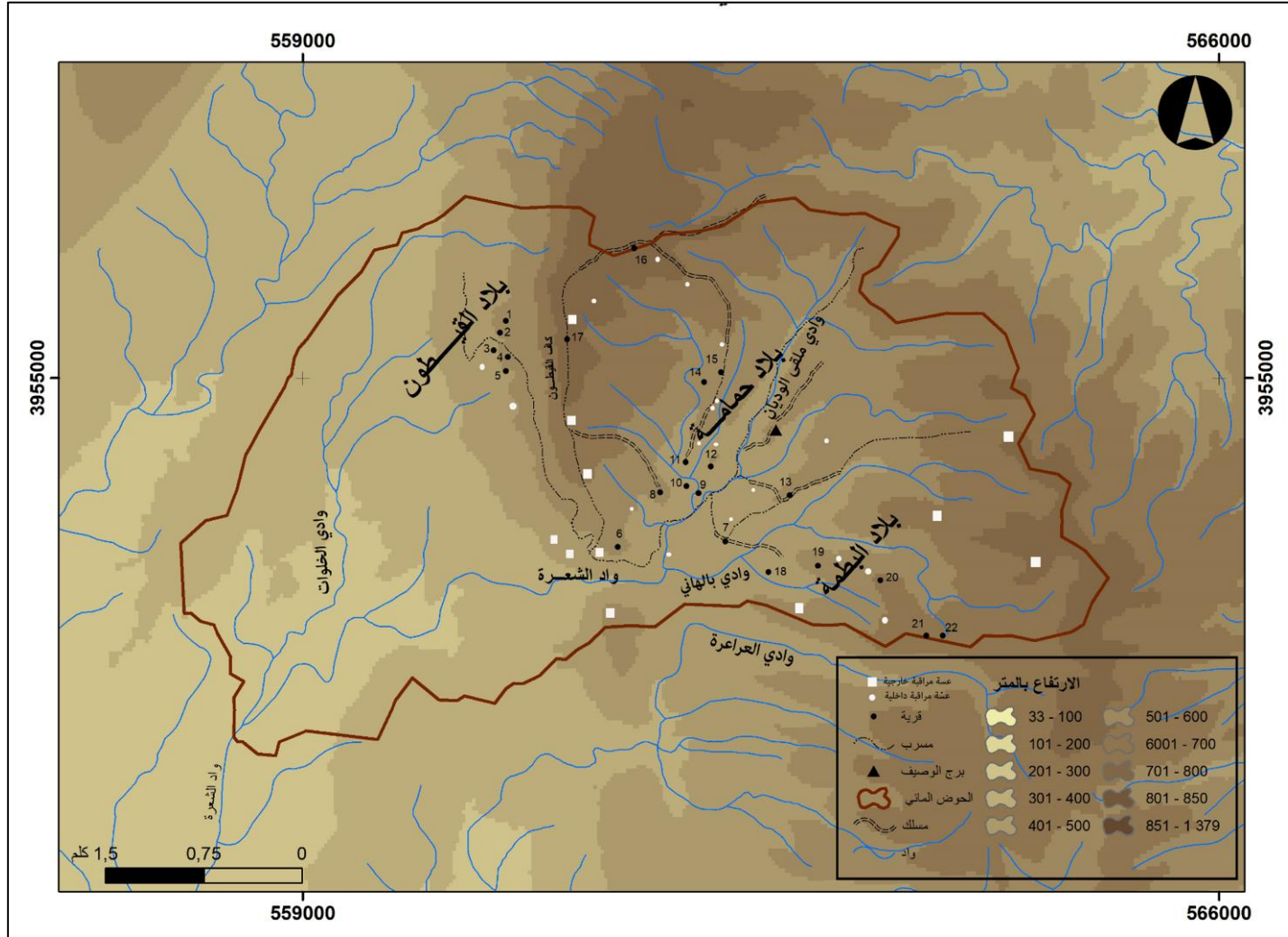
وقد مكّنا العمل الميداني من الوقوف على هذه الاختلافات في شكل المساطب بالحوض المائي لواد الشعرة بين مختلف مناطقها. حيث تتميز بلاد القيطون الممتدة مجالاتها الزراعية في منحدرات كاف القيطون والتلال المتقدمة للجبل المشرفة على السهول الغربية للجبل، تتميز مساطبها بامتدادها العرضي وبوضوح واستقامة جدرانها خاصة في جزئها الممتد نحو الغرب (الصور 18 و 19) المساطب على منحدر كاف القيطون ومنحدرات الغرب). وقد وُفّر هذا الاتساع إمكانيات زراعية هامة جعلت من النشاط الزراعي يُراوح بين الغراسات (أشجار الزيتون بالأساس) وزراعات الحبوب.

وتبرز في المقابل المساطب ببلاد حمامة أقل اتساعا وامتدادا لضيق الأحواض وتضرّس المنحدرات لكنها تقم نماذج لصنفي المساطب الشاسعة والممتدة في مستوى المنحدرات من الجهة الجنوبية (الصورة 20) وتقدّم أيضا مساطب ضيقة وصغيرة في مستوى منحدرات الأودية العميقة مثل وادي القليعة (الصور 21).

أما بلاد البطمة فتبدو أكثر المناطق تضرّسا حيث تتالي فيها الأودية العميقة وتتضاعف حدة انحدار منحدراتها خاصة في مستوى وادي القرايج أين تمتدّ المساطب على شاكلة جيوب صغيرة تتالي من أعلى المنحدرات إلى أسفلها مُسايرة الطبقات الكلسية الصلبة وأشكالها. وقد أثر حجم المساطب المحدود على طبيعة النشاط الزراعي ببلاد البطنة فهي مساطب تضمّ أشجار الزيتون التي تبدو أكثر غراسا لاتزال قائمة وتقلّ بها المساحات المخصصة للحبوب.

J. Despois, 1959, p. 412.²⁶

²⁷ "الدكاكن" هي المصطلح المحلي المعتمد في جبل برقو لتوصيف كلمة المساطب، الصويد، 2011، ج 2، ص



خريطة 4. توزّع مختلف أصناف "العسّات" داخل الحوض المائي لوادي الشعرة.
المصدر: رسم الكاتب



السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية عدد 15 -



صورة 15 و 16. "عسات" حول خنقة وادي الشعرة.



صورة 17. برج الوصيف.
المصدر: صور الكاتب.



صورة 19. مساطب غربي بلاد القيطون



صورة 18. مساطب منحدر كاف القيطون.



صورة 21. مساطب القليعة ببلاد حمامة (صور الكاتب)



صورة 20. مساطب وسط بلاد حمامة



صورة 23. منشآت مائية منقورة في منحدرات صخرية ببلاد حمامة

صورة 22. نهضة منشأة مائية في منكسر صخري ببلاد القيطون



صورة 24. سد حجري على وادي الجاهلية ببلاد حمامة.
المصدر: صور الكاتب.



صورة 26. تقنية التسقيف بالألواح الحجرية



صورة 25. استعمال أجزاء من معصرة في تشييد جدار



صورة 29. أقواس غرفة الضريح



صورة 28. الصدفية ورقبة القبة من الداخل



صورة 27. قبة سيدي بوحديد

(صور الكاتب)



وتتجمّع هذه المساطب المُنتالية والمُتجاورة في المنحدرات بمختلف المناطق داخل مساحات مضبوطة تُحدّدها جدران متوازية مع المنحدر وتنطلق من أعلى المنحدرات إلى أسفلها وهي مساحات كانت مصادر الفترة الوسيطة تُسميها "بالمقاسم"²⁸، فهي ملكيات فلاحية وتقسيمات محلية بالجبل يكون امتداد الملكية الواحدة من أعلى المنحدر إلى أسفله وتكون باقي المقاسم موازية لها وهي بذلك تُمثّل حلاً مجالياً يَمكّن كل المقاسم من الحصول على نفس كميات مياه سيلان مياه الأمطار عند انسيابها من أعالي المنحدرات ويبرز هذا التقسيم بشكل واضح في بلاد القيطون، ويكون لشبكة المسارب والمسالك مساهمة كبيرة في الفصل بين هذه المقاسم وأيضاً في الولوج إليها.

وتتوزع في أطراف هذه المقاسم وفي المنحدرات الصخرية وفي مجاري الأودية منشآت مائية كثيفة بعضها منقور في الصخور وبعضها مشّيد ومُهيّأ في الانكسارات الصخرية وبعضها الآخر طبيعي شكّله مياه سيلان الأودية في الصخور الكلسية مثل "القلنة الباردة" في وسط واد ملقى الوديان، وكل هذه الأصناف الثلاثة أشكال نجدها متواترة في كل جبل وولات²⁹ وتكون قريبة من المسالك والمسارب.

وقد كان للجغرافيا مرّة أخرى دور في تحديد مواضع وأصناف هذه المنشآت بين بلاد وأخرى، فبلاد القيطون التي تقل فيها المنحدرات الصخرية الهامة تركّزت منشآتها المائية حول القرى في مستوى انكسارات صخرية يقع تهيئتها وإضافة أسقف مُشيّدة لها وملاط عازل في داخلها (الصورة عدد 22). وفي المقابل مثّلت بلاد حمامة منطقة سيطرت عليها المنشآت المائية المنقورة في الصخور الكلسية وهي تمتد في المنحدرات الصخرية الصلبة (الصورة عدد 23)، ونفس هذا الصنف يتواتر ببلاد البطمة لكن كثافته تكون أقلّ بكثير ممّا نجده في بلاد حمامة.

ولئن كانت هذه المنشآت المائية المعروفة بتسمية المواجل مُخصّصة بالأساس للشرب لا للزراعة فإن معالم أخرى أمكن رصدها بوسط الأودية وتحديدًا في بلاد حمامة في وسط أحد روافد وادي ملقى الوديان تُحيل إلى هذه التهيئة المائية المرتبطة بالزراعة، حيث يوجد سدّ حجري (الصورة عدد 24) هو بمثابة الجلاميد الصخرية المنحوتة والمُثبّتة في أرضية الصخرية بوسط الوادي وهي النموذج الوحيد القائم إلى حدّ الآن والذي أمكن معاينته بكامل الجبل، ولا نستبعد وجود آثار لهذه التقنية في السدود في باقي الأودية بجبل وولات.

3. الخصائص المعمارية بالجبل : موارد طبيعية وسواعد محلية

²⁸ ابن عذوم، 2006، ج 6، ص 134؛ الصويد، 2021، ص 106.

²⁹ S. Bergaoui et A. M. Gammar, 1992, p.203.



يُقَدِّم مجال الحوض المائي لواد الشعرة نموذجا لمجال جبلي استطاع سكّانه التأقلم مع الخصوصيات الجغرافية والمناخية التي تُمَيِّزُه، حيث كانت العمارة المُشَيِّدة به عمارة محلية بها نماذج لأصناف معمارية جبلية تكاد لا تتكرّر في مجالات جبلية بعيدة وبعضها يكاد يكون تقليدا في كل المرتفعات القريبة على مستوى تقنيات البناء ومواده وعلى مستوى الانتظام الداخلي.

1.3. حوض وادي الشعرة كنموذج لدراسة جبل وسلات

لم تتناول الدراسات التاريخية والأثرية حول جبل وسلات إلى حدّ الآن قضية الانتظام المجالي الداخلي للقرى والمعالم بالجبل ولا تزال معارفنا حول التقسيمات المجالية وانتظامها داخله محدودة، وحيث أنّ دراسة كلّ جبل وسلات تحتاج إلى مجهودات كبيرة ومُشتركة من قبل الباحثين المهتمين بالتعمير بالمرتفعات الجبلية فإنّ الاهتمام بجزء أو قسم من هذا الجبل يمكن أن يكون منطلقا ونموذجا نستطيع من خلاله فهم باقي الجبل.

وتُقدِّم قرى الحوض المائي لوادي الشعرة خصائص مجالية على مستوى الانتظام الداخلي لبعض المعالم تشترك فيها مع مجالات جبلية قريبة من جبل وسلات على غرار المعالم الدينية، حيث تتوزع بهذا الحوض المائي خمسة مساجد، مسجد واحد بدار الزيت (بلاد الفيطون) وثلاثة مساجد ببلاد حمامة ومسجد ببلاد البُطمة.

وتتشترك هذه المساجد في خاصية موضعها الطرفي من النسيج السكني وفي موقعها المُشرف والأكثر بروزا من باقي المعالم مع وجوده في الغالب بالقرب من المسلك المؤدّي إلى القرية. ويبدو أنّ هذه الخاصية الطرفية للمساجد هي من بين الظواهر التي نجدها تتكرّر في المساجد بالقرى الجبلية بوسلات³⁰ ولكن أيضا بالمرتفعات الجبلية القريبة منه مثل برقو والسرّج وكسرى³¹.

كما أنّ المعالم الاقتصادية بهذا المجال لها خصائص مشتركة في مستوى موضعها فمعاصر الزيت المُنتشرة في القرى لها أيضا موضع طرفي من النسيج السكني بل هي في الغالب آخر المعالم وأكثرها طرفية في القرية، وهذه الظاهرة تتكرّر في بلاد الفيطون بمعصرة دار الزيت وفي بلاد حمامة بالبلد والقلعة ونجدها أيضا في بلد البطمة التي تحتوي وحدها على ستّ معاصر كلّها طرفية. وعلى غرار المعالم الدينية والمساجد تحديدا فإنّ موضع المعاصر الطرفي هو أيضا ظاهرة مُشتركة في قرى وسلات وفي قرى المرتفعات الجبلية بالقسم الأوسط من الظهرية.

³⁰ الصويد، 2016، ص 101.

³¹ الصويد، 2011، ج 2، ص 30.



ويحتوي هذا المجال الجغرافي الجبلي على صنف آخر من المعالم الدينية تتمثل في المعالم الولائية وهي في مجملها أضرحة مازالت تُحظى بطقوس الاعتراف لدى سكان أسفل الجبل³² نجدها تتكرر في كل بلاد بقطع النظر عن موقعها، فكل بلاد ضريحها أو بالأحرى لكل بلاد حاميتها.

ويصعب تحديد طبيعة العلاقات التي تربط أصحاب الأضرحة بأصحاب الأرض بكل بلاد إن كانت علاقات دموية (جدّ مؤسس) أم هي اعتقاد بكرامات، نظرا لوضعية التشتيت التي طالت سكان الجبل منذ 1762 م فالروايات المرتبطة بأصحاب هذه الأضرحة وعلاقاتهم بالسكان تبقى قليلة ونادرة فقد ضاع رصيد الذاكرة المحلية وتشتت مع شتات أهل وولات.

ويتزامن وجود هذه الأضرحة مع وجود مقابر لكل بلاد، ففي بلاد القيطون تمتد المقبرة في سيدي علي البكوش وتمتد مقبرة قرى بلاد حمامة قرب ضريح سيدي غريب في حين تمتد مقبرة قرى بلاد البطمة قرب سيدي بوحديد. وقد بينت الدراسات في مجالات أخرى من الجبل أن هذه المقابر تكون خاصة بعدة قرى لا بقرية واحدة³³، مما يفيد بأن ظاهرة المقابر الواحدة تكون للبلاد الواحدة هي ظاهرة خاصة بكامل جبل وولات.

2.3. العمارة الجبلية : حجارة جبلية وسواعد محلية

تبرز بمجال الحوض المائي لوادي الشعرة شواهد للتوطين منذ فترات ما قبل التاريخ من خلال الرسوم الجدارية على بعض المنحدرات الصخرية، كما تبرز به شواهد لمقاطع حجارة ومعاصر للزيتون منذ الفترة القديمة تمت الاستفادة من شواهدا ومن بعض أدواتها في الفترات الوسيطة والحديثة.

وتبدو المنشآت المائية المنتشرة بالجبل حاليا بأشكالها المستطيلة والدائرية ذات أصول قديمة حيث مثلت دائرية الشكل منها مقاطع لاستخراج "أحواض الطحن" plateau de brouillage في حين ان المستطيلة كانت مقاطع لاستخراج وصقل "المتقال" contrepoids وأيضا لنحت "سواري العصر المتوأمة" les Jumelles المنتشرة في كامل

³² تطرح نشأة هذه الأضرحة ملفاً مهماً في تاريخ المرتفعات الجبلية وهو ملف تسرب و نفاذ التصوّف الإفريقي إلى جبل وولات ومساهمة حركة التصوف في نشر المالكية عبر توطّن أولياء وصلحاء بالمرتفعات الجبلية منذ الفترة الحفصية حيث أشارت بعض الدراسات حول وولات إلى "أن الجبل كان على علاقة ما بمذهب الخوارج" وأن الظاهرة الولائية ساهمت في نشر وتسرب الفكر السني المالكي منذ الفترة الحفصية. وقد أصبح التصوّف زمن الحفصيين حسب دراسات أخرى "عنصراً أساسياً في توازن العلاقة بين السلطة والمجتمع" حيث دخلت السلطة "في تحالف موضوعي مع شيوخ الزوايا" وهو ما مكّنهم من بسط سيطرتهم المجالية ونشر المذهب المالكي والقطع مع المذهب الإباضي في مناطق نفوذه التاريخي مثل الجريد بمكوّنيه الأساسيين قسطنطينة ونفزاوة التي كان لحركة التصوّف مساهمة حاسمة في هذا التحول المذهبي، أنظر: المرابط، 2009، ص 142 – 143 و 155؛ ابن الصبّاغ، 2012، ص 19؛ المسراتي القيرواني، 2009، ص 15؛ الغماري، 2021، ص 15 – 16؛ حسن، 1999، ج 1، ص 120.

³³ المرابط، 2009، ص 151.



المجال. وقد مثل وجود كتابة لاتينية بأحد هذه المواجل حجة إضافية تدعم القول بأن المنشآت المائية المنقورة من إنجازات سواعد القاطنين بالمجال خلال الفترة القديمة³⁴.

وقد كانت الاستفادة من الإرث القديم أيضا في عمارة قرى بهذا المجال في مستوى إعادة استعمال الأرحية في معاصر الزيت بالبلدات، حيث تمثل كل الأرحية الموجودة في مجال واد الشعرة عناصر معمارية للمعاصر القديمة من دون استثناء. كما مثلت بعض الأدوات المخصصة للعصر عناصر تمت إعادة استعمالها في بناء الجدران (الصورة 25).

وتبرز بهذا المجال خاصية محلية لم نجد لها مثيلا في المرتفعات الجبلية القريبة وتتمثل في تقنية تسقيف فريدة من نوعها إلى حدّ الآن لا نستبعد أنّها من التقنيات الأصلية بالجبل منذ فترات قديمة. وتقوم هذه التقنية على استعمال الألواح الحجرية التي يتراوح طولها بين 1,50 م وعرضها بين نصف المتر والمتر الواحد مع سمك يتراوح بين 10 سم و20 سم، أستخدمت في سقف بعض المعالم السكنية القائمة وخاصة في مراصد الحراسة بشكل كثيف وفي "برج الوصيف"، وهي تقنية استفادت من ضعف عرض المنشآت الذي لا يتجاوز 2 م واستفادت من أكثر مواد البناء وفرة في جبل وولات وهي الطبقات الصخرية الصلبة والسميكة التي تُكوّن وتُميّز كتلة جبل وولات وهي تقنية راعت ندرة مواد البناء الخشبية بالجبل (الصورة عدد 26).

أما على مستوى تقنيات بناء الجدران فإن سكان الجبل شيدوا باعتماد حجارة محلية أحجامها تختلف من الصغيرة إلى الكبيرة وتتباين أشكالها ويُدمج فيها المبني أحيانا مع الكتل الصخرية الطبيعية، ويكون ترصيف الحجارة أحيانا على قاعدة صخرية وفي أحيان أخرى صفّ المداميك الأول للجدران يكون أكثر عرضا من باقي الجدار ممّا يعطي صلابة للمعلم. وأهم ما يمكن ملاحظته في تنضيد صفوف الحجارة (مداميك) بالجدران هو استعمال شظايا حجرية صغيرة مُثبتة بين كلّ حجرة وأخرى لضمان تباث وتراصف صفّ الحجارة الواحدة فبإزالة هذا الجزء الصغير يُصبح الجدار أكثر عرضة للانهيال.

وتتميّز جدران المعالم بكل القرى بمجال واد الشعرة بوجود ملاط داخلي من التربة والحصى وشظايا الحجارة وذلك خلافا لما ساد الاعتقاد به حيث كانت الفكرة السائدة لدى الباحثين بأن الجدران بقرى جبل وولات مُشيّدة عبر تنضيد الحجارة فحسب ومن دون اعتماد لا ملاط داخلي ولا خارجي³⁵ وتُعرف هذه التقنية في كامل البلاد التونسية إلى اليوم بتقنية "الصيّاح".

وقد مكّنتنا المعاينة الميدانية بهذا الجزء من جبل وولات من الوقوف على شواهد لاعتماد الملاط بكل القرى المُنتشرة بمجال واد الشعرة، بل إنّه وقعت معاينة شواهد لاستعمال

³⁴ الصويد، 2021، ص 105.

³⁵ J. Despois, p. 415



ملاط خارجي للجدران لا يزال بارزا في بعض أجزاء من جدران المنشآت الدينية وكذلك السكنية والاختلاف الوحيد نجده في مستوى مُكوّنات هذا الجير فهو جير أكثر نقاء وذو بياض ناصع في المساجد (مسجد حمامة ومسجد البطمة) قد يكون في علاقة بوجود نسبة مرتفعة من الجبس به، أما الأكثر تداولاً فهو الجير الذي يشوب لونه صفرة أو يغلب عليه اللون الرمادي لوجود نسبة هامة به من الرماد، وأحيانا تشمل التهيئة حتى قاعات المعالم فقد تمّ العثور على طبقة من الملاط الجيري تعلو قاع مسجد قرية البطمة.

ويحتوي المجال على نموذج من الأضرحة لا يزال قائما بشكل كامل وهو **ضريح سيدي بو حديد** الموجود في آخر نقطة من مجال بلاد البطمة، حيث لا تزال تعلوه قبة مخروطية الشكل شُيّدت بالحجارة الصغيرة بشكل مُتقن وهي تستند على رقبة صغيرة تمثل أركانها نقاط انتقال بين الشكل المربع لغرفة الضريح وبين رقبة القبة وهي تأخذ شكلا ربع كروي مدرّج (الصورة عدد 27 وعدد 28). وتبرز الأقواس الجدارية بالفضاء المربع لغرفة الضريح كأقواس بسيطة لكنها مشيّدة بشكل متوازن رغم ما يشوب شكلها من انحناءات في بعض المواضع (الصورة عدد 29)، وتقدّم جدرانها المشيّدة بالحجارة المصقولة نموذجا جيدا للعمارة المحلية البسيطة خاصة في مستوى واجهتها الشرقية الرئيسية أين يمتد مدخل الضريح والذي لا يزال ساكفه العلوي قائما وهو يشبه على مستوى التقنية مدخل ساكف ضريح سيدي غريب ببلاد حمامة.

ويبرز بضريح "**سيدي بو حديد**" اعتماد الملاط الخارجي الجيري بشكل واضح في كامل المعلم بالإضافة إلى استعمال بعض الأجزاء من أعمدة مواقع أثرية قديمة، كما يحتوي هذا الضريح على شواهد من اعتماد الأخشاب ودمجها في الجدران لمزيد تدعيمها، وهذا النموذج من اعتماد هذه التقنية في مجالات أخرى قريبة لم تُسجلها إلا في هذا المعلم فحسب من كامل مجال حوض وادي الشعرة.

3.3. الحوض المائي لواد الشعرة وقضايا التاريخ

لقد كان لقرب جبل وسلات من مدينة القيروان الأثر البالغ في تحديد موضعه من شبكة الطرقات العامة فالجبل لم يكن جبل معزولا ونائيا بل مثل مرتفعا جبليا قريبا من مسالك وطرقات تمرّ بالقيروان وتتفرّع منها نحو إفريقية وكامل بلاد المغرب.

وقد كانت بعض المسالك قريبة جدا من أطراف الجبل منذ الفترة الوسيطة المبكرة، فطريق الجبال الذي تذكره المصادر بين القيروان والحصنة عبر الأربس كانت محطّته الأولى مدينة "جلولاء"³⁶ التي تتطابق مع الموقع الأثري عين جلولة وهي موقع ملاصق للجبل من

³⁶ البكري، 1992، ج 2، ص 716؛ عرار، 1999، ص 23؛ الفهري، 2000، ص 56.



الجهة الجنوبية الشرقية. أما المحطة الثانية من هذا الطريق فهي "أجر"³⁷ وهي قرية قريبة جدا من جبل وولات من جهته الشمالية الشرقية.

أما الطريق الثاني فهو طريق القيروان - سببية والذي كان يمرّ من الجهة الغربية لجبل وولات وقد مثّل في جزئه الأول طريقا كان مُستعملا خلال الفترة الحديثة للتنقّل من القيروان إلى الجبل عبر "فجّ سببية"³⁸.

وقد كان لهذا القرب تأثير على الجبل وعلى انفتاحه على العواصم والمدن والقرى القريبة، وهو ما سمح بوجود نشاط وتبادل تجاري نجد صده في اللقى الخزفية بالقرى الجبلية، وتمثّل هذه اللقى المعطى الأثري الوحيد إلى حدّ الآن القادر على تقديم مؤشّرات عامة لتأريخ التوطن بهذه القرى وفهم التطور العام لها.

وقد مكّنا العمل الميداني بالمجال المدروس من الوقوف على خزف مؤرّخ بالقرن 6 هـ / 12 م يعود للفترة الموحدية - الحفصية ويتواصل إلى الفترة الحديثة بكل من بلاد القيطون وبلاد حمامة³⁹ وكذلك بلاد البطمة، ويبقى هذا التأريخ نسبي بحكم أن العينات من الخزف قد تمّ تجميعها من سطح الأرض في انتظار انجاز أسبار أثرية قادرة على تحديد تواريخ للتوطن بأكثر دقّة. لكن هل من إشارات تاريخية في المصادر التاريخية حول هذا المجال بجبل وولات؟

ليست لدينا إشارات مصدرية صريحة حول الحوض المائي لوادي الشعرة ولا لمختلف الأقسام المكوّنة له خلال الفترة الوسيطة، ولكن في المقابل فإنّ أقدم إشارة مصدرية ذكرت مجالات ومناطق جبل وولات تتطابق زمنيا مع المعطيات الأثرية ومع التواريخ التي تقدّمها اللقى الخزفية بهذا الجزء من الجبل، حيث أفاد الإدريسي خلال القرن 6 هـ / 12 م بأن جبل وولات "... فيه من الحصون حصن الجوزات وحصن تيفاف وحصن القيطنة ودار إسماعيل ودار الدواب"⁴⁰.

ويبدو أن مصطلح "الحصون" الذي أورده الإدريسي يُفيد مختلف التقسيمات المجالية بجبل وولات، بمعنى أن الجبل كان ينقسم منذ تاريخ وصفه خلال القرن 6 هـ / 12 م إلى خمسة مجالات، وهو تقسيم ترابي وجغرافي (وقد يكون جبائي أيضا) على غرار نظام الحصون بالأندلس⁴¹، ولا نستبعد أن يكون هذا التقسيم الخماسي للجبل قد تواصل خلال الفترة الحديثة بتسميات مختلفة. فقد استعمل الصغير بن يوسف خلال القرن 18 م في وصف الجبل

³⁷ يوجد الموقع الأثري "أجر" بسيدي عمارة حاليا شمال الوسلاتية على بعد حوالي 5 كلم.

³⁸ البكري، 1992، ج 2، ص 710؛ الباهي، 2013، ص 23-41، ص 33.

³⁹ الصويد، 2021، ص 100.

⁴⁰ الإدريسي، 2007، ص 88.

⁴¹ P. Cessier, 1984.

حسن، 2004، ص 31.



مصطلح "القبائل" وأورد قائلاً عن الجبل وسكانه "وهم خمس قبائل أوساطهم (كذا) أولاد مانس والجبل وأهل تيفاف وأهل بورحال وأكثرهم أولاد إسماعيل"⁴² وفي المقابل فإن وثائق الأرشيف كانت تستعمل عبارة "الخمس" و"أخماس الجبل"⁴³، و"الخمس" بهذا المعنى هو الوحدة المجالية المستعملة بالجبل خلال الفترة الحديثة للتفريق بين مختلف المناطق في الوثائق الرسمية وعند السكان المحيطين بالجبل وهو على الأرجح تقسيم وريث تقسيم مجالي عريق بالجبل⁴⁴.

وتقدّم الفترة الحديثة صنفاً آخر من المصادر هي الوثائق الأرشيفية التي تتضمن إشارات أكثر دقة حول المجال الجبلي تم تدوينها في علاقة بالجباية فقدّمت تسميات للعائلات وللقرى الجبلية بوسلات بشكل عرضي، وقد كان لبعض الدراسات التاريخية السبق في الاعتماد على هذا الصنف من الوثائق الأرشيفية لكتابة تاريخ هذه المجموعات السكانية القاطنة بالمرتفعات الجبلية لوسلات تمكّنت من خلالها من فعم الانتماءات العائلية للوسالنية⁴⁵.

وقد مكّنتنا الوثائق الأرشيفية من الوقوف على تسميات المناطق الثلاثة المكوّنة للحوض المائي لوادي الشعرة خلال القرن 18 م، حيث كانت "بلاد حمامة" أقدم المناطق المذكورة في الوثائق الأرشيفية التي أمكن الاطلاع عليها وتعود أولى الإشارات إليها في تاريخ سنة 1743 م وردت في إحدى "الخطايا" الموظّفة على أحد سكانها بالعبارة التالية "قبل ولد مبارك بن سلامة من أولاد حمامة دية أخبر عنه القايد أحمد بن محمد قايد وولات أواخر ربيع الثاني 1156 (جوان 1743) ..."⁴⁶.

ونجد أن بعض الوثائق الأرشيفية تتحدّث في سنة 1762 عن المجموعات التي غادرت جبل وولات فيتواتر في بعض القوائم الاسمية ذكر السكّان القاطنين بالحوض المائي لوادي الشعرة والمناطق الثلاثة المكوّنة لها بشكل مُتتالي وهو ما يدعم ملاحظتنا الميدانية من انتماء هذه المناطق إلى نفس المجال وتحركاتهم ومواقفهم وحتى هروبهم كان في مجموعات تؤكّد

⁴² الصغير بن يوسف، 1998، ج 1، ص 105.

⁴³ أ. و. ت.، الدفتر عدد 16؛ المكني، ص 85-86.

⁴⁴ هناك تسميات ذكرها الإدريسي لأقسام الجبل تواصلت خلال الفترة الحديثة، "فحصن تيفاف" عند الإدريسي أصبح عند الصغير بن يوسف "أهل تيفاف" و"حصن إسماعيل" أصبح عنده "أولاد إسماعيل"، كما يمكن أن نلاحظ وجود هذا التقارب في الرسم بين عبارة "حصن القيطنة" المذكورة من قبل الإدريسي وبين بلاد القيطون، فهل كانت تسمية القيطون وريثة لتسمية القيطنة؟

⁴⁵ يمثل العمل الذي أنجزه الأستاذ عبد الواحد المكني أولى الدراسات التاريخية التي أعادت كتابة تاريخ سكان الجبل من الوسالنية بالاعتماد أساساً على الوثائق الأرشيفية بمختلف أصنافها.

⁴⁶ الأرشيف الوطني التونسي، الدفتر عدد 34.



وحدة انتمائهم الجغرافي، "فأولاد حمامة" غادروا مع جيرانهم من أهل القيطون ومع أهل البُطمة والشندوب خلال هروبهم من الجبل⁴⁷.

وتؤكدُ مُجمل الإشارات الأرشيفية لتسميات مختلف مناطق الحوض المائي لوادي الشعرة -بالإضافة إلى وحدة الانتماء الجغرافي- تؤكدُ وحدة الانتماء "القبلي" لساكلي هذا الحوض بأقسامه الثلاثة. فلقب "القيطوني" (نسبة إلى بلاد القيطون) أكدت دراسات تاريخية انتمائه إلى خمس أولاد إسماعيل⁴⁸ مما يعني أن "بلاد القيطون" و"بلاد حمامة" و"بلاد البُطمة" تمثل كلها مجالا جغرافيا كانت تقطنه مجموعات من أولاد إسماعيل أكبر أخماس جبل وولات خلال القرن 18 م.

لقد مكّنا العمل الميداني من الوقوف على انتظام جبل وولات على شاكلة أحواض مائية، ويمثل الحوض المائي لوادي الشعرة أحد أبرز هذه الأحواض بالجبل وهو يتميز بوجود تجانس على المستوى الجغرافي والمعماري وحتى البشري (القبلي) فكل سكاني ينتمون على ما يبدو إلى "خمس أولاد إسماعيل" وبالتالي فإن حوض وادي الشعرة يمثل أحد الأجزاء المكونة لهذا الخمس المستحوذ على أكبر مساحة بالجبل.

وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن فهم جبل وولات ودراسة انتظامه المجالي يجب أن يكون من زاوية الأحواض المائية وتتبع أشكال التعمير بها وربطها بالتوطن البشري ومنه يمكن تكوين صورة كاملة حول الجبل وحول أخماسه.

المصادر والمراجع

ابن الصبّاح محمد بن أبي القاسم الحميري، 2012، [يرجّح تأليفه]، مناقب أبي علي سالم التباسي تلميذ أبي الحسن الشاذلي، تحقيق أحمد الباهي، سوسة، دار كونتراست للنشر، سوسة. ابن عثوم أبو الفضل أبو القاسم بن محمد مرزوق بن عبد الجليل بن محمد المرادي، 2006، كتاب الأجوبة، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيت الحكمة، تونس.

الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد الحمودي، 2007، أنس المهج وروض الفرج، حقق الوافي نوحى قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان، الرباط، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

⁴⁷ أ. و. ت.، الدفتر عدد 120، وقد خصصنا في أطروحة الدكتوراه عنصرا للوسائل التي الذين غادروا الجبل قبل قرار الإخلاء النهائي لجبل وولات وآخر للوسائل التي المغادرين للجبل بعد قرار الإخلاء، أنظر: الصويد، 2011، ج 2، ص 166 - 172.

⁴⁸ المكني، ص 85.



- الأرشيف الوطني التونسي، 1148 – 1151 هـ، **الدفتر عدد 15**، مقايض ومصاريف.
- الأرشيف الوطني التونسي، **الدفتر عدد 26**.
- الأرشيف الوطني التونسي، 1175 – 1181 هـ، **الدفتر عدد 120**، مداخل الدولة من الدوايا والخطايا والأعشار واللزم.
- الأرشيف الوطني التونسي، 1155 – 1156 هـ، **الدفتر عدد 34**، مداخل الدولة من الدوايا والخطايا.
- الباهي أحمد، 2013، "فج سببية: أحد المواضيع على طريق القيروان-سببية في العصر الوسيط المتقدم"، في سمير القيزاني نشر، العمران والعمارة في المتوسط خلال العهدين القديم والوسيط في ضوء المصادر الأثرية والأدبية، فعاليات الملتقى الدولي الثاني، 24-25-26 نوفمبر 2011، تونس، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس، ص 23-41.
- البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، 1992، **المسالك والممالك**، تحقيق أدريان فان ليفن وأندري فيري، تونس، بيت الحكمة - الدار العربية للكتاب.
- حسن محمد، 1999، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، تونس.
- حسن محمد، 2004، الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع VII – XV م، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت.
- الخريطة الطبوغرافية 1/50000 حفوز رقم 62.
- الصغير بن يوسف محمد بن محمد الكورغلي الباجي الحنفي، 1998، **المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي**، تحقيق أحمد الطويلي، تونس، المطبعة العصرية.
- الصويد جهاد، 2011، **التعمير والمعمار بجبل برقو دراسة إثنوآثرية**، شهادة دكتوراه في علوم التراث، تحت إشراف الأستاذة منيرة الرمادي - شابوطو، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس.
- الصويد جهاد، 2013، "دشرة بو عبد الله (حمادة كسرى): الخصائص الأثرية وإشكالية التأريخ"، القيروان وجهتها، دراسات جديدة في الآثار والتراث، أعمال الندوة العلمية الدولية الثالثة لقسم علم الآثار (القيروان 1 – 4 أبريل 2009)، نصوص جمّعها وأعدّها للنشر النوري بوخشيم وجعفر بن نصر وأحمد الباهي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان - مركز النشر الجامعي، تونس، ص 135 – 143.
- الصويد جهاد، 2015، "المشهد التعميري بجبل السرج بين معطيات المصادر والشواهد الأثرية"، **الجبل والسهل في حوض المتوسط**، أعمال الندوة العلمية الدولية الرابعة (القيروان 5، 6 و7 ديسمبر 2011)، نصوص جمّعها وأعدّها للنشر جعفر بن نصر والنوري بوخشيم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، ص 77 – 85.



الصويد جهاد، 2016، "قرية العرمة بجبل وولات: دراسة أثرية وتاريخية"، الأرياف والآثار الريفية ببلاد المغرب والمتوسط، أعمال الندوة العلمية الدولية السادسة (القيروان: 14، 15 و 16 أفريل 2016)، نصوص جمعها وأعدّها للنشر جعفر بن نصر ومراد عرار والنوري بوخشيم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، ص 63 - 104.

الصويد جهاد، 2021، "بلاد حمامة (جبل وولات) الشواهد الأثرية والخصائص المجالية"، البيزاقيوم، البيزاقينة، المزاق: اشتغال الأرض، التعمير وأنماط العيش، فعاليات الندوة العلمية الدولية السادسة لمخبر البحث "اشتغال الأرض والتعمير وأنماط العيش في بلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة"، سوسة 13 - 14 - 15 جوان 2019، أعدّها للنشر عبد اللطيف المرابط، سوسة، ص 89 - 110.

عرعار مراد، 1999، الأربس وناحيتهما إلى حدود القرن 6 هـ / 12 م، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الوسيط، إشراف الأستاذ محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.

الغماري علي بن ميمون [منسوب إليه]، 2021، مناقب أحمد الغوث التباسي، يليها السلسلة التباسية، لمجهول حرّرها سنة 1333 هـ / 1914 م، تحقيق أحمد الباهي، تونس، مجمع الأطرش للتوزيع.

الفهري نافع، 2000، شبكة الطرقات بإفريقية خلال القرون الخمس الأولى للهجرة، إشراف الأستاذة منيرة شابوطو، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس.

المرابط رياض، 2009، "الانتماء المذهبي لجبل وولات بين معطيات النصوص والمعطيات الأثرية"، القيروان وجهتها، اكتشافات جديدة، مقاربات جديدة، أعمال الندوة العلمية الدولية الثانية لقسم علم الآثار (القيروان 6 - 8 مارس 2006)، نصوص جمعها أحمد الباهي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، مسكيلياني للنشر، تونس، ص 137 - 156.

المسراتي القيرواني جمال الدين بن محمد، 2009، مناقب أبي القاسم المسراتي المعروف بصاحب الدربالة، حققه وقدم له ووضع فهارسه أحمد الباهي، دار كونتراست للنشر، سوسة. المكني عبد الواحد، د. ت.، شتات أهل وولات من 1762 حتى بداية القرن العشرين، دار سحر للنشر، تونس.

الوسلاتي عامر، 1994، المشاهد الطبيعية في تونس، تونس.

BEN NASR J, « Quatre abris peints découverts au Jebel Ousselat (Tunisie Centrale) », *Préhistoire Anthropologie Méditerranéennes*, tome 10 -11, 2001- 2002, p. 159 – 166.

BERGAOUI Sami et GAMMAR A. M., 1992, « Typologie des citernes et barrages de jebel Ouesslet (Dorsale tunisienne) », *Les Cahiers de Tunisie*, n°151-152-153-154, p.197-226.

CRESSIER Patrice, 1984, « Le château et la division territoriale dans l'Alpujarra médiévale : du hisn à la Ta'a », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, Tome 20, p. 115 – 144 .



DESPOIS Jean, 1959, «Le Djebel Ousselat, les Ousseltiya et les Kooub», *Les cahiers de la Tunisie*, n° 28, p. 407 – 427.

Frémont F, 1968, La région du Djebel Serj (Dorsale tunisienne) : étude géomorphologique, Faculté des lettres et Sciences Humaines de Caen.

GRAGUEB A, HARBI – RIAHI A, M'TIMET A et ZOUGHLAMI J, 1991, « Nouvelles découvertes de représentations rupestres en Tunisie : Jebel Ousselat (Tunisie Centrale) », in *Bulletin des Travaux de l'institut National d'Archéologie et d'Art de Tunis*, fasc. IV, p. 41 – 64.

TURKI M-M, 1988, Polycinématique et contrôle sédimentaire associée sur la cicatrice Zaghouan – Nebhene, *Revue des sciences de la terre*, (mémoire) Volume 7.

YAHIA– ACHECHE S, 2009, « Stations rupestres et habitats préhistoriques du Jebel Ousselat : résultats préliminaires de plusieurs missions de prospection », in A. El Bahi (ed.), *Kairouan et sa Région : nouvelles découvertes, nouvelles approches, Actes du deuxième colloque international organisé par le département d'Archéologie à la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Kairouan (6-8 Mars 2006)*, Tunis, Miskiliani éditions, p. 35 – 46.